الخرافات الشائعة

انتشارها وضرورة مكافحتها

الخرافة عبث يمارسه أصحابه وهم يعلمون أو لا يعلمون أنهم يعبثون و يلهون. وفى كل منا مهما تقدمت بنا السن شيء من الطفولة أو نحن نصبو إلى أيام الطفولة فنتخلق بأخلاقها. ومن هنا أيضا قيمة الخرافة العابثة : كالملح نرشه فوق رءوس المجتمعين وقت زفاف العروس. أو كالتعويذة تتعوذ بها الفرقة فى الجيش وتتخذ لها حيوانا يمثلها ، أو التعويذة التى تعلق على السيارة، وغير ذلك مما لا يضر ولا يؤدى إلا إلى سخرية الذين لا يؤمنون بتلك التعاويذ. و بعض الخرافات يتخذ لونا أدكن لا هو بالأسود ولا هو بالأبيض كتلك الخرافة الأوربية بشأن رقم ١٣ . فإن كثيرين يضحكون منها و يتفكهون بها و يحرصون مع ذلك على ألا يقعوا فيها. فاذا أقامت ربة البيت وليمة فانها تحرص على ألا يكون عدد الكراسى ١٣ وكذلك تفعل الفنادق حتى لا يتطير أحد بأنه منحوس لأنه قد قضى ليلته فى غرفة قد وسمت برقم ١٣ والفنادق عادة تتجاوز هذا الرقم فتنتقل من ١٢ إلى ١٤ . ولكن معظم الأوربيين يضحكون من هذه الخرافة و يجدون فيها موضوعا للتفكه . ومثلها خرافة إشعال الثقاب فإن الانجليز يصرون على إشعال ثلاثة من عيدان الثقاب اتشؤمهم من إشعال اثنين . ومثل هذه الخرفة خرافات أخرى هى موضوع الضحك واللهو عند البعض ، وموضوع الجد والخطورة عند آخرين. وهذا هو الشأن فى قراءة الكف أو فى الطوالع الفلكية. فان كثيرين منا يتسلون بمثل هذه الخرافات فى حين أن آخرين يؤمنون بصحتها و يسألون و يستقصون . وقد يقعد أحدنا على ساحل البحر و يعبث بالرمل و يعين الحظوظ لمن حوله « بضرب الرمل » ويثير القهقهة هنا والسخط هناك لأنه يختار الحظوظ كما يشاء له مزاجه وتدعوه خصوماته أو صداقاته الوقتية. ونحن هنا بالطبع إزاء خرافة غير ضارة . ولكن فى القاهرة والاسكندرية من يحترمون ضرب الرمل وقراءة الكف والتنجيم بل من يقرأون المستقبل حتى فى فنجان القهوة و يقصد إليهم رجال وسيدات فى الشباب أو فى الشيخوخة يسألون فى لهفة وتطلع عن المصير المختبئ ويفسرون الكلمة الغامضة بما يتفق ورغبتهم . وهم يؤدون الأجر العالى لمثل هذا الهذيان . ولكن الأجر على غلائه هو أقل الخسران . والخسران الأكبر هو الاعتماد على ما يقوله هؤلاء المتكسبون بهذا التهريج . لأن المصدق لقراءة الكف أو الفنجان أو النجوم أو الرمل يلغى عقله و يلجأ الى مشورة سخيفة يحسب أنها قد كتبت له فى حظه . وعندئذ يسوء تصرفه و يقع فى الوبال .

وخرافاتنا الضارة كثيرة فى مصر . وهى جميعها تتسم بسمة معينة هى ترك الرأى والاعتماد على العقيدة . والإنسان حين يقع فى مشكلة يشق عليه التفكير واستنباط الرأى السديد وهو لذلك يلجأ إلى العقائد المتوارثة التى تسير فى أثر الثقافة الشعبية كأنها الذيول الممزقة المتناثرة . وليست هناك خرافة موروثة إلا وكانت فى عصر سابق جزءا متماسكا فى ثقافة ماضية بادت بالتطور و بقيت الخرافة منفصلة لاتجد مايؤيدها من المنطق الاجتماعى وروح العصر .

ومن هذه الخرافات الإيمان بالعين . وطبقاتنا الفقيرة بل بعض الطبقات المتوسطة تخشى العين وتعلل المرض والوفاة والخيبة بالعين وهى تتعوذ منها بأساليب مختلفة . وهذه الخرافة هى أعم الخرافات فى الأمم . فقد ذكرت المؤلفة الأمريكية بيرل بوك كيف أن الفلاح الصينى يحمل ابنه الطفل على صدره و يغش الآلهة حتى لاتصيبه بالعين فيقول "وما هو هذا الطفل. هو بنت حقيرة" .

وعندنا من الأمهات تلك الأم التى تترك طفلها فى قذارة اللباس والوجه لأنها تخشى إذا غسلته ونظفته أن يبدو وسيما فتصيبه العين . ثم بعد ذلك إذا حم هذا الطفل أو توعك أو مرض بأى علة عمدت الأم إلى رقيته بنفسها أو بإحدى الخبيرات. وهناك يشعل الموقد و يوضع الشب على النار وتقرأ التعاويذ . و يتحد الشب شكلا يحمل الحضور على توهمه شخصا معينا هو صاحب العين المؤذية . ثم يلقى الشب عند مفترق الطرق . وهناك أساليب أخرى فى اقتفاء أثر العائن والاهتداء إلى شخصيته بقطع خرقة صغيرة من ملابسه مما قد يؤدى الى شجار بين العائلات .

والأم التى تعنى هذه العناية بالعين تحمل ابنها تحت ملابسه أوفوقها حملا من الأحجبة "التمائم" أو العوذ . وهى لإيمانها الثابت بهذه الخرافات تهمل المرض ولا تعمد الى الطبيب المختص لأنها تؤثر عليه الراقيات فتفدح المصيبة ثم لاتكون منها عظة واعتبار . لأن الايمان بالعين يزداد ثباتا .

وفى مديرية أسوان وفى بعض السودان تعمد الأم الى تخطيط وجه ابنها بالحز أو الكى . وهى تتبرك بهذا العمل الذى يختلف من الوسم الى الوشم . ونحن نستبشع هذا العمل ونراه تشويها يجب أن تكف عنه الأمهات. ولكن لا يزال فى بلادنا أمهات يعمدن الى أطفالهن بالكى لأنهم يبولون فى الفراش . والأم الجاهلة تؤذى طفلها وهى تعتقد أنها تعالجه من هذه العادة التى تعد جزءا من طبيعة الطفولة. وحين يشب الطفل وهو لا يزال يبول فى فراشه بعد أن يكون قد تجاوز السنوات الأربع أو الخمس من عمره فان المسألة تحتاج الى تشخيص الطبيب — طبيب النفس أو طبيب الجسم — وليس الى تشويه الطفل بكيه أو لسعه بالنار . وهناك أمراض معينة تتصل بالمجارى البولية وتجعل الطفل عاجزا وقت نومه عن حبس بوله كما

أن هناك حالات نفسية تجعل الطفل يدافع عن مركزه بين إخوته بالتبول . وهذه حالات دقيقة تحتاج الى المشورة السيكلوجية الفنية .

وأعظم الميادين التى تتفشى فيها الخرافات ميدان التطبيب . وليس هذا عجيبا إذا عرفنا أن الطب يعنى فى لغتنا السحر كما يعنى معالجة الأجسام. وذلك لأن الطبيب كان فى الأصل ساحرا . والوصفات العامية للأمراض هى الحثالة الباقية من الطب القديم حين كان أغلبه أو كله سحرا . فالايمان بالعين والتعوذ منها بالتعاويذ والرق انما هما بعض ممارسات الطب القديم التى انحدرت الينا فى أثر الثقافة الشعبية بعد أن انفصلت من المجموعة الفكرية الجديدة. وأفظع آثار هذه الخرافات نراه فى أمراض العيون حيث يؤدى الاعتماد على وصفات بلدية الى العمى أو ما يقاربه اذا لم يدرك الطبيب المختص المريض بعلاج وإسعاف . وكثيرا ما تلقى صبيا قد علق خرزة فوق عينيه أو وضع عجينة قذرة لإبراء الورم من عين مزمهرة تحتاج الى الاسعاف العاجل . ولكن أهله يهملونه حتى تفوته فرصة العلاج فيكون العمى نصيب هذا المسكين . وكم من أعمى فى مصر أصابته كارثة العمى من هذه الخرافات السوداء .

وفى بعض البيئات فى القاهرة يشترى العوام تذكرة داود الانطاكى ويدرسون ما فيها من " عقائد " طبية ويمارسونها فى أنفسهم أو فى غيرهم من المرضى فيعممون بذلك الأذى. وتذكرة الانطاكى هذه مجموعة من الثقافات القديمة الفرعونية والاغريقية والبابلية والعربية . ويجب ألا نعزو لهذا الكتاب اية قيمة سوى القيمة التاريخية . والقصد هو أعم العلاجات عند الانطاكى اذ هو ينصح به فى الزكام والطاعون سواء . والمريض الذى يسترشد بهذا الكتاب إنما يسترشد بخرافات لا حد لخطرها وضررها . وقراءة مثل هذا الكتاب بين العامة يعد ضررا كبيرا . ونحن ننقل منه بعض ما يقوله عن الجدرى، هذا الوباء المعروف الذى يعاقب الآباء الان على إهمالهم تطعيم أبنائهم ضده قبل أن يتموا من أعمارهم ثلاثة أشهر . فان هذا المرض من الأوبئة الفتاكة وهو يحتاج الى حجر صحى لمنع العدوى . ولكن ابن البيطار يقول فيه :

" إن الجدرى من فضلات دم الحيض. ولا شك أن اللبن عن الغذاء بالفعل من الدم. فيجب أن يكون عنه أيضا " و يقول فى العلاج إنه يجب " إعمال الحيلة فى الرعاف أو شرط الأذن ، الجبهة . وأخذ ما يبرد الدم عن الغليان كالكزبرة والعدس والعناب ... ... وقد تدعو الحاجة الى أكل الحلو غير العسل والتمر اذا كان الزمان باردا ليتبه الدم و يدفع فاسده ..." الخ

فكل هذا هراء فى نظر الطب العصرى ولكن العامة يقرأونه و يؤذون أنفسهم به . وكم من مريض بالتدرن (السل) أو البول السكرى أو الروماتزم أو السرطان قد نقص عمره

وزاد بلاؤه بالاعتماد على وصفات داود الانطاكى وغيره من المؤلفين الذين تطبع مؤلفاتهم وتقرأ لا للثقافة التاريخية فحسب بل للاستنارة والاستشارة !

ولا بد أن بعض ما نجد من ممارسات العامة يعود الى قراءة هذه الكتب . مثل تحريم الاغتسال على الأقرع. ووضع العقاقير العقيمة أو المضرة فى العين. وعند العطارين فى القاهرة مئات من المواد التى لا يكاد يعرف أسماؤها الرجل المستنير المتعلم ولكن ربات البيوت يعرفنها و يعتقدن فيها المعجزات . وظننا أن كتب الانطاكى وأمثاله هى علة الاعتقاد بهذه المواد .

والتمسح بأضرحة الأولياء من الخرافات التى لم تجد الى الآن دعاية العقلاء فى الكف عنها . وهذا التمسح يعمد اليه المرضى فى أحيان كثيرة، وقد يكون المرض وباء وافدا فتنتقل العدوى باجتماع المتمسحين حين كان يجب عزلهم ومنع الاختلاط بينهم و بين غيرهم. وأحيانا يعمد المريض الذى يشكو قرحة أو ورما أو غير ذلك فيحك العضو المئوف بعمود فى الضريح حتى يسيل الدم أو الصديد. ثم يأتى غيره فيفعل فى المكان مثل فعله . ولا تكاد توجد فى العالم طريقة أنجع وابدع من هذا العمل فى نقل العدوى و إفشاء المرض .

وكل هذا يعد من الخرافات المؤذية التى يجب أن نرشد الجمهور ونصح له بالإقلاع عنها . ووسيلة ذلك أن يعمد الوعاظ فى المساجد الى إيضاح الحقائق للجمهور ، وأن يحثوا أفراده على ألا يؤمنوا بقراءة الكف أو التنجيم أو التعرف الى الحظ من القهوة أو ورق الكوتشينة أو ضرب الرمل . وأن الطب القديم الذى يتصل بالسحر لم تعد له قيمة، وأنه يجب على كل مريض أن يبادر الى طبيب عصرى بأسرع ما يمكنه حتى لا تفوته فرصة العلاج . وكم من كوارث نزلت بالأسر لاعتمادها على وصفات بلدية أو مستخرجة من كتب قديمة وأهملت الطب العصرى الذى كان يجب أن تعتمد عليه فى إبراء أمراضها . وهناك أمراض تبدأ صغيرة تافهة لا تلفت النظر أو تدعو الى الاهتمام . كالسرطان مثلا يبدأ ورما قد لا يزيد على حجم الفولة . فاذا لم يكن المريض عصرى الذهن يؤمن بالطب العصرى و يبادر الى الطبيب فان تأخره لاعتماده على مشورة غير الفنيين من أصحاب الرقى أو الوصفات القديمة يؤدى بمرضه الى التفاقم . وحين يتفاقم السرطان يزول الرجاء فى الشفاء . فلتكن لنا عبرة ولنحارب الخرافات .